هاس في "إشرب بحر غزة "
طائر يغرد خارج سربه. . . أم ان الليث يبتسم ! !

في مجتمع استبدل ناسه العبارة الشتيمة "إذهب الى الجحيم" بعبارة "إذهب الى غزة", في كنيست لا يتورع معظم أعضائه من نعت المدينة ب "عش الدبابير " و "تلة القمامة", في بلد مثقل بحقد اعمى لغزة وناسها, طلعت اميرة هاس "1 " لتكتب بحب واعجاب عن هذا الشعب وتقول قولة حق في أخلاقيته ومصداقيته ومعاناته .

"إشرب بحر غزة"صادر عن شركة متروبوليتان بوكس, نيويورك)1999 (, ترجمه الى الانكليزية إيلانا ويزلي ومكسين كوفمان لاكوستا"2" وهو عرض لمجتمع غزة بكل فئاته: اطباء ومزارعين وسائقي تاكسي وربات بيوت وقادة تنظيمات ومعتقلين سابقين.

تنطلق هاس في مقدمتها حارة مملؤة عاطفة وإعجابا بهذه الارض وهذا الشعب و تعيد قراءة التاريخ لتستخلص ان ماشاهدته في غزة هو جزء من ذاكرتها الجمعية, فمعاناة هؤلاء القوم هي فصل من فصول المعاناة التي عاشتها اسرتها في رومانيا مذ كان والدها طفلا والتي تكررت فصولها على ايدي النازيين ومن بعدهم اوروبا باكملها.)تعتبر الكاتبة اوروبا باكملها مسؤولة عن طرد اليهود من اوروبا الى فلسطين لانها ضاقت بهذا الاخر المختلف(.

تتكلم هاس عن أول احتكاك لها بالفلسطينيين كبشر لا كوحوش كاسرة كما تصورهم الدعاية الاسرائلية فتقول: دعانا احد الاصدقاء لقضاء نزهة في بيارته, في هذه البيارة سمعت صدى اسرائيليتي, كما سمعتها في الاصوات العبرية التي كانت تطرق مسمعي في مخيمات اللاجئين و في القصص التي يرويها هؤلاء عن قراهم ومدنهم في فلسطين, يتكلمون عنها وكأنها لم تحدث سوى البارحة, كما قرأتها في النوادر الطريفة المحزنة التي حدثت لاصدقائي المحررين من سجون الاسرائليين . . . .في تلك النزهة تعرفت الى غزة وشعبها ومن خلالهم استشعرت مر العيش تحت الاحتلال, ومن اناسها تعلمت كيف يمكن للابتسامة العريضة العزلاء, التي ترتسم على معظم وجوه اهالي غزة, ان تخفي حزنا عميقا يصل حد المأساة.

يعود اهتمام هاس بغزة مذ عملت متطوعة بمنظمة اسرائيلية تنظر في شكاوى العمال العرب ومعالجة القضايا والمشاكل التي تنشأ بين هؤلاء العمال وارباب العمل الاسرائيليين. يومها كانت تعمل محررة في صحيفة "هآرتس"فرتأت ان تكتب عن القطاع الذي كان بالنسبة للكثيرين امثالها الارض المجهولة terra incognita . . . تتكلم عن تجربتها تلك وتبدي دهشتها وإعجابها بحسن الضيافة والترحيب اللذين لاقتهما من قبل هؤلاء الناس في حين كان زملاؤها الاسرائليون يعتقدون انها تقوم بعمل مجنون وخطر : "بعيدا قبل انتقالي الى غزة كنت قد اكتشفت كم هي مجحفة الصورة الاسرائلية العامة عن غزة , المتوحشين الاجلاف, اعداء اليهود, وعلى مدى إقامتي هناك كنت اتعمد ان اجعل كل من اتعرف اليه يعلم انني يهودية واسرائلية, فالذين يتكلمون العبرية من زملائي تكلموا معي بتلك اللغة بدون اي حرج , في بيوتهم , في الشوارع, في الاسواق والمكاتب, وفي مخيمات اللاجئين, في بيت في خان يونس حيث جاء بعض الناس لتشييع فتاة قضت برصاص الجنود الاسرائليين, في مظاهرة تدعو لاطلاق سجناء , في حفل زواج اخ ما. وغالبا ما كنت انام في بيوت هؤلاء الاصدقاء إذا ما داهم المنطقة اعلان منع تجول مفاجئ . ماذا كان اصدقاؤك يفعلون إذا ما وجد الاصوليون)من الفلسطينيين (ان امراة يهودية تعيش بينهم؟ سالني رجل من تل ابيب يوما يدعي انه يعرف الكثير عن العرب. فاجأني سؤاله, فانا لم أفكر يوما ان وجودي بينهم سيسبب لهم إحراجا, إذ ان احدا منهم لم يشعرني بذلك. لقد فتحوا لي ابواب بيوتهم مرحبين, سواء كان ذلك في مخيم رفح او في مخيم الشطي الذي يمتد على امتداد شاطئ غزة. شكرا لهم, فقد علموني كيف انظر الى غزة بعيون اهلها لا من وراء زجاج سيارة جيب عسكرية ولا في غرف الاستجواب في مكتب شباق "جهاز الامن الاسرائيلي ")ص: 5 (. وتضيف: ان تجربتها في غزة والبساطة التي استقبلها بها الناس ورغبتها في الاجابة على كل الاسرائيليين الذين لا ينفكون يتساءلون: "كيف انك لست خائفة", لكل اولئك كتبت هاس القصة بكاملها

وهاس حسب ما جاء على غلاف الكتاب مولودة في القدس لابوين اوروبيين يهوديين لاجئين وعن ابويها تقول في المقدمة : ذكريات اهلي التي تختزنها ذاكرتي منذ الطفولة تغلغلت فيّ حتى امست جزءا من ذكرياتي الخاصة , قصص الناجين من الهولوكوست, الشيوعيين , يهود اوروبا الشرق جنوبية , الذين يعيشون في "دولة اسرائيل", كلها فصول ملحمية أنشأني عليها والديّ. ملحمة المقاومة والصراع ضد الظلم والاضطهاد أينما وجد. وتسرد

هاس بعضا من صراع والديها هذا الذي استمر حتى في اسرائيل, صراعهما ضد التمييز العنصري الذي تمارسه السلطة على "العرب الاسرائيليين", كما تسميهم. ثم تتكلم عن دوافعها وراء المجيء الى غزة وعملها فيها فتقول : في نهار صيف من عام 1944 انزلت امي من عربة للماشية مع بقية حمولتها البشرية من بلغراد الى مخيمات التعذيب في برغن بلسن . لقد رات النساء اللالمانيات, بعضهن مشاة وبعضهن على دراجات, يخففن من سيرهن حين يمر الموكب الغريب ينظرن بلامبالاة. بالنسبة لي كان هؤلاء الناس رمزا للاستهتار واللامبالاة . منذ ذلك الحين قررت ان لا اكون ممن يقفون متفرجين على جوانب الطريق. وفي النهاية فان رغبتي في البقاء في غزة لم يكن عملا مجنونا ولا مغامرة ولكن خوفا من ان اصنف واحدة من هؤلاء المتفرجين على جوانب الطريق . فغزة, بالنسبة لي, تمثل كل مراحل الصراع الاسرائيلي الفلسطيني . تمثل جوهر التناقض في دولة اسرائيل : حرية للبعض ونفيا للاخرين . . . اريد ان اتعرف على الشعب الذي تغيرت حياته الى الابد بفعل مجتمعي وتاريخي الذي اجبر اهل هؤلاء القوم واجدادهم على اللجوء وترك قراهم عام 1948 . . . ثم تزيد : بالحقيقة لقد وجدت بسرعة ان هنالك شيئا خاصا يربطني باللاجئين الذين يعيشون في المخيمات , شعرت انني في موطني, شعرت ذلك في المؤقت الذي يمسي دائما, في اللهفة التي ترنو الى كل حبة رمل, في الغضب الذي ينمو في الازقة)ص: 7(. شيئا فشيئا ولاصدقاء قلائل فقط في غزة واسرائيل بدات اشرح انه هذا هو ميراثي . سيرة ذاتية شخصية وصلتني عن طريق والدي امتزجت في ضميري وعبدت طريقي الى غزة

كان الثالث عشر من ايلول عام 1995 يوما مشهودا للسلطة الفلسطينية فبعد سنين من النفى والتشرد عاد بعض قادتها الى الوطن. كان اصدقائي فرحين متفائلين ببداية عهد جديد ينهي الحكم العسكري المحتل ويهيء لحكم ذاتي مدني بعد طول معاناة وصبر وتضحيات. في بيارة البرتقال التي يملكها احد اصدقائي كنا شلة من الاصدقاء نلهو معا وكانت الاضواء تنتشر فوق حقول بيت حانون في غزة كما على كيبوتزات كفار عزة وإيريز في اسرائيل . من تلك المسافة لم نكن لنفرق اين تبدا فلسطين واين تنتهي اسرائيل فاشجار السرو والتربة السمراء ورائحة شجر الاوكاليبتوس هي ذاتها هنا وهناك. . . كان البحر يحتضن الافق, مشهد جميل إلا انه أثار في نفسي ذكرى شوهت جماله, تذكرت قولة اسحاق رابين في غزة: "لو انها تغرق في البحر" , عبارته الفظة تلك وانتشارها السريع بين الاسرائيليين لدليل على مشاعر الحقد تجاه غزة والمليون نفس القاطنين فيها. تذكرت القابا أخرى عنيفة اطلقت على غزة, فاسحاق شامير اطلق عليها "تلة الزبالة" و"عش الدبابير". فغزة هي عنوان الرفض الفلسطيني ولذلك فان الاسرائيليين يقولون "إذهب الى غزة" بمعنى "إذهب الى جهنم". إلآ ان هاس لم تشأ هذه الدلالة لكتابها بل دلالة مصرية تقول ان كل من يشرب من النيل لا بد ان يعود ثانية اليه

أما بقية اجزاء الكتاب فهي عرض لرحلة آلام غزة منذ بدء الانتفاضة الى آخر ما تم)حتى حينه(من اتفاقات اوسلو , بل انها تذهب ابعد من ذلك فتسترجع عن طريق التداعي تاريخ فلسطين قبل واثناء نكبتها عام 1948 , وهي لا تكتفي بالتعرض للجانب السياسي للقطاع بل تتعداه الى الاجتماعي والسيكولوجي ايضا محاولة إعطاء صورة مكتملة عن هذه المنطقة البائسة التي عاشت لحوالي ربع قرن حصارا واحتلالا قاسيين مريرين والتي لم تنته معاناتها بانتهائه. والكتاب في فصوله جميعها يبدو متعاطفا مع هؤلاء الناس متفهما لمواقفهم مستوعبا لتناقضاتهم , وفيه تبدو الكاتبة مشاركة فاعلة لا مجرد راوية ومشاهدة. وهاس من خلال عرضها لماساة هذا الشعب تظهر عكس ما تشيعه الدعاية الصهيونية, فالماساة لم تجعل منه المتوحش القاسي بل البليغ المرن, صاحب النكة المرة والشجاعة الادبية الى جانب الاخرى الجسدية. والكاتبة إذ تبدو متجردة فتعرض لاراء ومواقف جميع الفئات والتنظيمات على الساحة الغزية باسلوب موضوعي ولكننا نشتم تعاطفا مع اليسار الفلسطيني يتسلل على مهل حييا لا يفصح عن نفسه سافرا بل يكتفي باللمحة العابرة, يظهر ذلك من خلال امتداحها لمواقفهم المعتدلة وتفهمهم لدواعي الاعمال العسكرية التي يقوم بها الاصوليون ولاحترامهم المرأة وإيمانهم بدورها الفاعل واشراكها في شتى الميادين.

إلا إن اهم ما يميز الكتاب هو أصراره على انسانية الانسان الفلسطيني الذي رغم كل معاناته وفقره لم ينحرف الى الجريمة: "ولو اخذنا بالحسبان الفقر المدقع الذي يعيشه اهل غزة لتوقعنا مزيدا من الانتهاكات والجرائم , إلا ان مسؤول شرطة قال لي : لا اعمال كبيرة لدينا , مخالفات سير, بعض حالات لتعاطي المخدرات هذا كل شيء , لا سرقات ولا اعتداء على شرف ولا اعمال قتل تذكر").ص: 61(. ثم تعرض الكاتبة باعجاب الى ظاهرة الروابط العائلية, فالفرد في العائلة الفلسطينية مستعد للتضحية بماله وحريته وحتى حياته في سبيل باقي افراد الاسرة. وتعقب على هذه الظاهرة بالقول: نسيج عائلي كهذا هو نعمة تتمناها وتسعى اليها اي دولة في العالم .)ص: 59(

تصر الكاتبة في اكثر من مرة على ان الفلسطيني انما يحارب من اجل كرامته فقد نقلت عن لسان احدهم : "كل ما اريده لنفسي وابنائي هو العيش كبشر, ولشعبي ان يعامل كباقي الناس". وفي مكان آخر تقول على لسان احد

الناشطين في الانتفاضة " لماذا تظنين اننا ابتدانا الانتفاضة؟ " سالني "اشقر" ذات يوم , إنها ليست الارض , ليس هنالك قطعة ارض تساوي زهق الدماء . كلا, نحن نريد الشيء ذاته "فالشيء" كان واضحا وبديهيا حتى انه لم ير ضرورة للافصاح عنه بالاسم") ص: 50 (وتستطرد: اثر بي كلامه فرحت ابحث عما يريده الفلسطينيون فاكتشفت انهم يريدون ان يوسعوا دائرة خياراتهم , كافراد وكمواطنين. وعلى المدى الطويل فانهم سيحكمون على اوسلو بمدى عمق ما يحققه لهم من حرية كشعب وأفراد إنسانيين)ص: 50 (

ولا تتناسى هاس عيوب المجتمع الفلسطيني فتعرض للروح القبلية التي تتحكم في الكثير من العلاقات وتسميها "حمولة" . ثم تستعرض نماذج لبعض النفعيين الذين يتقلبون بين هذا التنظيم وذاك طلبا للمنفعة الشخصية. ولا تنسى ان تعرض مسالة التفرقة بين المواطنين الاصليين واللاجئين, فسكان المخيمات الذين في معظمهم من لاجئي القرى الفلسطينية كانوا يشكلون عصب المقاومة ضد الاحتلال وقد كان هؤلاء اكثر جراة واشرس مقاومة واشد تمسكا بوطنيتهم من سواهم . فمشاعر الظلم التي عانوها نتيجة اقتلاعهم من ارضهم عام 1948 وما تبعه من احتلال, والاستغلال الاقتصادي الذي مورس عليهم من قبل الاسرائليين والعليائية التي يمارسها عليهم ابناء شعبهم :"المواطنين") سكان غزة الاصليين(اموراذكت في نفوسهم الروح القبلية بكل ما فيها من عيوب وحسنات, الروح التي تحكمت بكل العلاقات في المجتمع الغزي والتي ما لبثت ان تطورت لتمسي انتماء تنظيميا فاعضاء التنظيم الواحد)فتح, حماس, الجبهة الشعبية إلخ (, يساند بعضهم بعضا وبذلك امسى التنظيم هو البديل عن "الحمولة"
. ولا تنسى هاس ان تتعرض لمسالة المراة: تعدد الزوجات وسيطرة الرجل غير المشروطة والظالمة في كثير من الاحيان, وصراع المراة من خلال بعض المؤسسات والجمعيات التي تعمل في ظروف صعبة لتحقيق بعض الحقوق. ثم يقودها الحديث الى ما تركته الظروف المستجدة على شخصية المراة, ففي كثير من العائلات اضطرت المراة للخروج الى العمل والقيام بمهمات ما كانت لتقوم بها لولا الظروف القسرية)الاعتقالات, وارتفاع نسبة البطالة, والحصار, ومنع التجول . . . (امور اقعدت رجل البيت واستوجبت على المرأة الخروج الى معترك الحياة لسد الثغرة الاقتصادية فأمسى دورها أكثر فاعلية. كما ان هاس لا تنسى ان تشير الى الدور الايجابي الذي لعبته السلطة الفلسطينية في انطلاقة المراة الفلسطينية وتحررها.

تخصص هاس مساحة كبيرة من كتابها لسوء المعاملة التي تعرض لها الفلسطينيون إبان الاحتلال وتركز بصفة خاصة على قانون الضرائب الجائر الذي كان يفرض عليهم وعلى ممارسات رب العمل الاسرائيلي الذي كان يستغل العامل الفلسطيني كلما سنحت له الفرص لذلك. فهي مثلا تقيم مقارنة بين معدل الضريبة التي يدفعها العامل في اسرائيل والاخرى التي يدفعها مثيله في غزة: "لا يدفع العامل الذي يتقاضى 4800 دولارا سنويا وله زوجة غير عاملة وثلاثة اولاد اي ضريبة على دخله, في حين يقاضى نظيره الفلسطيني 185 دولارا ونيف أي اربعة بالمئة من دخله. وترد الكاتبة على المبررين للحكومة الاسرائلية هذا العمل بان سعر صندوق البندورة في غزة يساوي سعر كيلو واحد في اسرائيل بقولها إلا ان القائل تغاضى عن المواد الاخرى التي تدعمها الدولة في اسرائيل ولا تفعل الامر نفسه في القطاع.

ونقرأ في الكتاب عرضا لانتهاكات حقوق الانسان التي تمارسها السلطات الاسرائيلية على المعتقلين والموقوفين في سجونها وتسرد من الحوادث ما لا يقل عما كان يمارس على اليهود في معسكرات التعذيب النازية منها: التوقيف لمدة طويلة دون محاكمة, العزل المطلق حتى عن ضوء النهار, حرمان السجين من النوم, تقنين السماح له بالذهاب الى المرحاض, إخضاعه لعمليات تجويع وعطش, هذا عدا عن الاساءة الجسدية المباشرة كالضرب واللكم وما شابه. ثم ان هنالك الاساءة النفسية كالتهديد بالاغتصاب والتهديد بالتعرض للمحارم وكيل الشتائم البذيئة. . . أمور تترك آثارها السلبية نفسيا وجسديا على السجين لسنوات طويلة بعد تحرره, وقد يصل الامر بالكثيرين الى عاهات دائمة او فقدان لرجولتهم او بالانتهاء في مستشفى المجانين

في الفصل الاخير من الكتاب نقع على وصف مفصل للمعاملة السيئة التي تمارسها السلطات الاسرائيلية على المواطنين المدنيين : منع التجول الاعتباطي, الضرر الاقتصادي الذي يلحق بالمزارعين والتجار نتيجة إقفال المعابر غير المتوقع والطويل الامد, والانتظار الطويل عند نقاط العبور للحصول على إذن قد لا يحقق. لقد كانت لهجة هاس شديدة الادانة الى درجة انها اسمت ذاك الفصل "غزة السجن", ومن خلال عرضها تظهر العلاقة بين تشديد الحصار وبين قيام اي عمل عسكري من قبل الفلسطينيين . وتستفيض في وصف ما يتركه الاغلاق بعد كل عملية عسكرية من أذى وخسائر . صحيح ان الكاتبة تدين الاجراءات الاسرائلية ولكنها في وصفها المسهب كي لا اقول المبالغ فيه دعوة الى إقامة تعاون بين المجتمعين الاسرائلي والفلسطيني , كي لا ابالغ واقول دعوة مبطنة للفلسطيني كي "يتأدب"

وفي الفصل ذاته عرض لما تقوم به السلطة الفلسطينية من أساءة للشعب فهي لم ترفع عنه اي ضيم بل سمحت للمستغلين بتحقيق مكاسب مادية على حسابه وتعطي مثلا على ذلك شركتي "بحار؟ بهار ؟ " و"سلام")ص: 302(ثم تكشف عن ممارسات وتوقيفات متعسفة حتى لتكاد تقول ان السلطة الفلسطينية لم تعامل شعبها بافضل ما عامله الاحتلال, وتري فيها نظاما قمعيا لا يختلف بكثير عما هو سائد في الانظمة العربية الاخري , ومع ذلك فان المتشددين في اسرائيل يتهمون رئيسها بالتساهل مع "الارهابيين" , على حد تسميتهم, في حين ترى الكاتبه ان الكثير من الاعمال القمعية التي تقوم بها السلطة الفلسطينية في كثير من الاحيان هي لاثبات حسن النية تجاه الدولة العبرية

لم تتعامل هاس مع الشخصية الفلسطينية بطريقة سطحية بل انها فهمتها في عمق . تقول: "والفلسطينيون بقلوبهم يصرون على ان الارض كلها لهم, فهم لن يعترفوا بالتسميات العبرية الجديدة التي اطلقها الاسرائيليون على الاماكن بل ستظل اسماءها الاصلية في احاديثهم ينقلها الاباء للابناء,.ولكن من معايشتي في غزة تعلمت ان شعبها عنده القابلية والرغبة الصادقة للفصل بين ما يكنه القلب ويرغبه وما تسمح به السياسة على ارض الواقع "نحن بعد كل شيء ام الصبي " يقولون مشيرين الى حكم الملك سليمان لاستعدادهم المشاركة بالارض . شرطهم الوحيد هو ان اي حل يجب ان يعامل الفلسطينيين بكرامة كشعب صاحب حق أساسي ودعوة مساوية لدعاوى الاخرين الذين يعيشون على هذه الارض ويسمونها موطنهم " ص:352

لا شك ان الكتاب تحكمه رؤية توفيقية, وفيه دعوة صارخة لاقامة تقارب بين المجتمعين الفلسطيني والاسرائيلي لان العداء الحاصل في النفوس من كلا الطرفين سببه جهل كل طرف للطرف الاخر بدليل قيام صداقات حميمة وصلت حد التضحية بالسلامة الشخصية بين بعض افراد المجتمعين عندما تم الاتصال بينهما.)تسرد الكاتبة بعضا من هذه الاحداث إلا ان ضيق المجال لا يتسع لسردها(لعلها ارادت ان تقول للفلسطيني ان عدوك هو النظام الاسرائيلي لا الفرد اليهودي العادي

ترى هل ارادت الكاتبة ان تنعي المصالحة الفلسطينية الاسرائيلية لانها آتية من فوق فيما المصالحة الحقيقية يجب ان تقوم من القاعدة الشعبية؟ ! ام انها ارادت ان تجمل هذا المتوحش في نظر شعبها ام هي تخبئ تحت ركام من العواطف النيلة تهديدا ودعوة للمقاومين بالكف عما يفعلون ؟ ! . . .

هوامش

)1(- اميرة هاس مولودة في القدس عام 1957 لوالدين يهوديين اوروبيين لجأا الى فلسطين بعد قيام الدولة العبرية. تعمل محررة في الصحيفة الاسرائيلية اليومية هآرتس وتقطن رام الله. تبحث في مقالاتها امور الضفة والقطاع.وقد رشحت لجائزة روبرت كندي تقديرا لجهودها في هذا المجال

(2) - Drinking the Sea at Gaza, Amira Hass, translated by, Elana Wesley and Maksine Kaufman - Lacusta, Metropolitan Books, New York, 1999